تحول المجتمع السكندرى من اللغة اليونانية واللغات الأخرى إلى اللغة العربية فى ظل الفتح العربى

إعداد

إبراهيم إبراهيم عنانى

باحث ومؤلف فى التاريخ الاسلامى

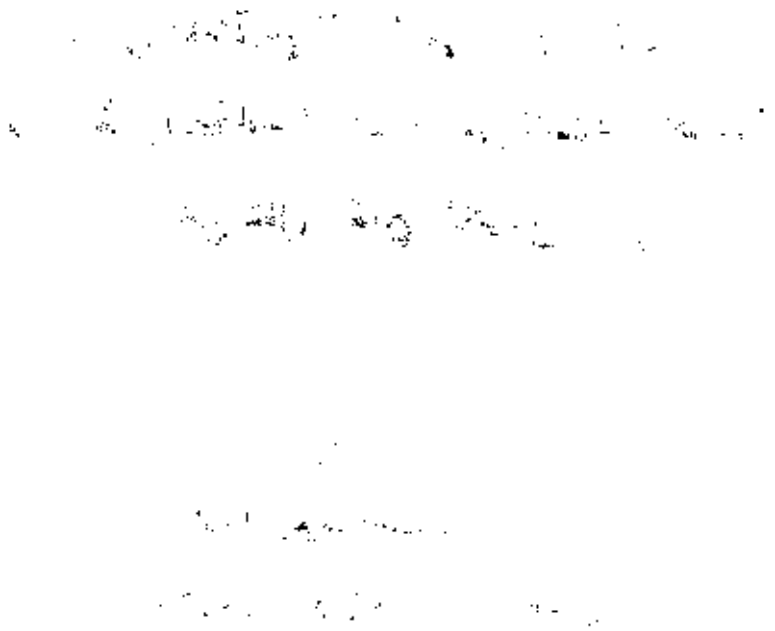

تحول المجتمع السكندرى من اللغة اليونانية واللغات الاخرى إلى اللغة العربية فى ظل الفتح العربى

إن مجتمع الإسكندرية منذ بدأ يتكون فوق هذه البقعة المطلة على البحر المتوسط حيث مدخل مصر الشمالى، والقريبة من حدودها الغربية حيث مدخلها الغربى، إن المجتمع السكندرى بموقعه هذا يقدم نموذجا فريدا بين مجتمعات المدن المصرية، لا ترجع أهميته إلى أن الإسكندرية كانت عاصمة البلاد المصرية طوال عدة قرون منذ تاسيسها أيام الإسكندر ٣٣٢ق.م. إلى أن فتحها العرب المسلمون فى القرن السابع الميلادى. فنقلوا العاصمة إلى مدينة جديدة هى الفسطاط أقاموها قرب التقاء فرعى النيل الكبيرين. لقد كان ميناء الإسكندرية فى مكانها هذا يهدف إلى ربط مصر بعالم البحر المتوسط، وهو العالم الذى كانت تسوده الثقافة اليونانية كجزء من خطة كبيرة ترمى إلى نشر الثقافة اليونانية فى شتى أرجاء الشرق القديم. وكانت الإسكندرية المصرية واحدة من (إسكندريات) عدة أقامها اليونان فى مراكز هامة على طول طريق امبراطورية الإسكندرية الاكبر- ولكن لم يكن من طبيعة الأشياء أن تظل الإسكندرية المصرية وهى على جزء من التراب المصرى مدينة يونانية، حتى وإن كانت عاصمة الدولة البطلمية، وهى إحدى الدول الإغريقية الكبرى، إمبراطورية الإسكندر الأكبر، فما لبثت صبغتها المصرية، كإحدى مدن مصر وإن كانت قد نجحت فى المواءمة بين الثقافة والمصالح والمقومات المصرية واليونانية وكان العامل الأكبر الذى

مكنها من ذلك هو حرصها على أن تفيد من موقعها على البحر من ناحية وعلى الأرض المصرية من ناحية أخرى، ولقد تعرضت الإسكندرية عبر تاريخها الطويل إلى أحداث وحروب وصراعات - وفى غمرة هذه الأحداث ظهر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وتلا ذلك فتح مصر على يد عمرو بن العاص فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقبل الفتح الإسلامى كان العرب يفدون إلى مصر منذ أقدم العصور للتجارة وذلك عن طريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية حتى أن المؤرخ والجغرافى اليونانى سترابون المتوفى نحو سنة ٢٥ بعد الميلاد قال عن مدينة قفط فى الصعيد أنها نصف مدينة عربية - ووفد على مصر للتجارة - زمن الجاهلية - عدد من الشخصيات العربية التى اشتهرت فى الإسلام نذكر منهم عثمان بن عفان وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبه. - وحين أرسل الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العاص لفتح مصر فى سنة ١٨ هـ (٦٣٩)م كان العرب يدركون تماما اهمية الإسكندرية، وقيل أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية أول مرة ورأى بيوتها وبناءها، هم إن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها وكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل، فكتب عمر إلى عمرو : إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط. أى أن المؤرخين العرب يرجعون عدم اختيار الإسكندرية عاصمة لمصر بعد فتح العرب لها إلى تحفظ الخليفة عمر بن الخطاب بالنسبة لركوب البحر. - وكانت

الإسكندرية حين فتح العرب مصر مدينة بيزنطية أى رومية أو يونانيه، فكان معظم سكانها من الروم وكان يسيطر على مجتمعها العادات والتقاليد والثقافة اليونانية. وهذا يفسر إعجاب العرب بمدينة الإسكندرية، وسرعان ما اختط العرب الفسطاط فكانت كل خطة تسكنها قبيلة، كذلك نزلت قبيلة همدان موضع الجيزة واختطوا فى الجيزة خططا عرفت بهم مثل خطط الفسطاط - ويذكر المؤرخون أن قوما من العرب نزلوا فى الإسكندرية عقب الفتح على أن الإسكندرية لم يكن فيها خطط وانما كانت «أخائذ» أى من أخذ منزلا نزل فيه، ويقال أن الزبير بن العوام اختط بالإسكندرية أى أن العرب الذين استقروا فى مصر بعد الفتح العربى ومعظمهم من عرب الجنوب أو اليمنية كانوا يقيمون فى الفسطاط أو الجيزة أو الإسكندرية. وقد حرم عليهم عمر بن الخطاب الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض فلم يكونوا يعنون بغير السياسة والحكم والضرب. ولذا لم يختط العرب بالمصريين فى البداية. ولقد كانت الفسطاط مدينة عربية إسلامية وسط المحيط المصرى القبطى، أما الإسكندرية فكانت مأهولة بسكانها من الروم واليهود والاقباط ويقدر «موتيه» عدد سكان الإسكندرية فى العهد البيزنطى بنحو ٣٠٠,٠٠٠. والمعروف أن اتخاذ العرب للفسطاط عاصمة لهم بعد الفتح، أثر - إلى حد ما- على مركز الإسكندرية العاصمة السابقة وخاصة بعد أن فتح العرب الإسكندرية وأجلوا قسما كبيرا من سكانها من الروم. ولكن الإسكندرية سرعان ما أخذت تسترد ما كان لها من ازدهار ونشاط. وبدأت دور صناعة السفن تستعيد نشاطها وتساهم فى صناعة السفن منذ خلافة عثمان بن عفان وولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح. كذلك استأنفت مصانع النسج

نشاطها كما عاد للإسكندرية نشاطها. التجارى القديم بين الشرق والغرب – وكما كانت الفسطاط عاصمة مصر ومقر حكومتها، فقد كانت الإسكندرية عاصمة مصر الثانية وميناها الهام ومقر البطركية – ومنذ الفتح العربى اهتم عمرو بن العاص بإنشاء مسجدا فيها كما أنشأ مسجدا فى الفسطاط عاصمة البلاد – وظلت مدينة الإسكندرية تحتفظ بمكانتها الخاصة التى كانت لها منذ عصر البطالمة فى القرن الرابع قبل الميلاد حتى عصر الأخشيديين فى القرن الرابع الهجرى – العاشر الميلادى، إذ كانت تعتبر فى معظم الأحيان جزءاً مستقلا عن مصر حتى فى القضاء، كما كانت تعتبر قسما مستقلا بجبايته ويلاحظ ذلك عندما وصل إلى الأمير أحمد بن طولون، تقليد بولاية جميع أعمال مصر من الخليفة العباسى، فإنه لم يكن بين والى الإسكندرية ووالى مصر معاملة ولا خطاب بل كانوا يتهادون الهدايا فيما بينهما وكانوا من تحت سلطان وأحد. كذلك اهتم العرب بعد فتح مصر اهتماما كبيرا بأمر حامية مصر وحظيت الإسكندرية باهتمام كبير. وكانت حامية الإسكندرية أو رباطها فى خلافة معاوية بن أبى سفيان اثنى عشر ألفا من الجند العرب. ولكن قائد هذا الرباط كتب إلى والى مصر حينذاك – عتبة بن ابي سفيان (٤٢–٤٤هـ) – يشكو قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم . وبالرغم من الطابع شبه المستقل الذى كانت تتمتع به الإسكندرية حتى القرن الرابع الهجرى – العاشر الميلادى، إلا أن تعريب مجتمع الإسكندرية سار فى نفس الخط الذى سار فيه تعريب مصر كلها. إذ أخذت مصر بعد الفتح العربى لها تفتح عينيها على العروبة والإسلام وأخذت تندمج فى مجموعة الشعوب العربية، بل أن مصر أصبحت بعد ذلك قاعدة

لانتشار الثقافة العربية الإسلامية في شمال أفريقية ومن بعدها في الأندلس، وكانت الإسكندرية هي الباب الرئيسي لعبور تلك الثقافة إلى غرب العالم الإسلامي، أو لعبور ثقافة الأندلس وشمال أفريقية إلى مصر وشرقي العالم الإسلامي - وبعد أن ساد العرب البلاد المختلفة حربيا وسياسيا لم يكن من الطبيعي أن تظل لغة العرب وثقافتهم أجنبية غريبة على أهل البلاد المفتوحة وأن تكون لغة أهل البلاد المفتوحة غريبة على العرب - وفي مصر - وشهدت خلافة عبد الملك بن مروان - أخي أمين مصر - حركة «التنظيم والتعديل» على حد تعبير المؤرخين العرب. فعمد عبد الملك إلى صبغ الدولة بصبغة عربية، وإلى الاعتماد على الموظفين من العرب أو الذين يتقنون العربية من أهل البلاد المفتوحة. وهكذا بدأ الخليفة عبد الملك تعريب لغة الإدارة والحسابات كما أمر قبل ذلك في سنة ٦٧هـ بضرب نقود عربية بدلا من النقود الفارسية والبيزنطية التي كان يتداولها الناس حتى ذلك الحين جنبا إلى جنب مع النقود الإسلامية. وكانت عملية التعريب طويلة بدأها عبد الملك في أخريات حياته منذ سنة ٨١هـ - وقد بدأ عبد العزيز بن مروان حركة التعريب بترجمة الأنجيل، وبعض الكتب، والمكاتبات بين البطرك وبين ملكي الحبشة والنوبة. وأصبحت اللغة العربية لغة الدواوين في مصر بعد وفاة عبد العزيز بن مروان والخليفة عبد الملك ابن مروان، فبدأ في سنة ٨٧هـ (٧٠٥ - ٧٠٦م) في خلافة الوليد بن عبد الملك وفي ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر . ومع أن تعريب الدواوين بدأ في مصر في سنة ٨٧هـ إلا أن الوثائق البردية تدل على أن الحكومة ظلت مدة طويلة تستخدم العربية واليونانية، على حين كانت السلطات المحلية في الريف تكتب كثيرا باللغة

القبطية. ونجد وثائق ذات لغتين عربية ويونانية إلى القرن الثانى الهجرى – الثامن الميلادى بل أنه وجد «إيصال» بدفع الضرائب تاريخه سنة ٢٤٦هـ عليه كتابة قبطية – وكان لتعريب الدواوين بعض الأثر فى تعريب مصر والإسكندرية، إذ أصبح للدولة العربية إلى جانب السيادة السياسية والحربية والسيادة اللغوية فانتشرت اللغة العربية وأصبحت لغة الإدارة ولغة الثقافة والفكر، ولغة التخاطب فضلا عن أنها لغة السياسة والدين.

على أن أهم عوامل تعريب مصر هو نزول القبائل العربية فى الريف المصرى واستقرارها على جانبى الشريط الخصب بوادى النيل وفى الدلتا مما أدى إلى اختلاطهم بالأقباط اختلاطا كبيرا. فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربى، واللغة التركية فى العهد العثمانى لغة البلاد الرسمية ولكن هذا لم يجعلها لغة الشعب المصرى. فكان اليونانيون ينزلون المدن ويصبغونها بحضارتهم ولكن نفوذهم الثقافى لم يذهب للريف إلا قليلا فلم تنشر اللغة اليونانية إلا فى بيئات خاصة وعاش اليونانيون فى مصر كأنهم جزر يونانية في وسط المحيط المصرى الواسع. وكذلك عاش الأتراك فى بيئات خاصة فى مصر ولم يستطيعوا جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية بالرغم من أن الحكم التركى دام عدة قرون. ولكن حدث فى عهد العرب تفاعل واختلاط بينهم وبين المصريين وكان لهذا الاختلاط أكبر الأثر فى تغلب الثقافة العربية الإسلامية فى وادى النيل وفى تعريب مصر والإسكندرية وشجع الخلفاء بعد الفتح وفود القبائل إلى مصر فكان أغلب الولاة الذين حكموا مصر فى فجر الإسلام يصحبون معهم جيوشا عربية حتى نهاية

العهد الأموى، أو عربية ومن شعوب أخرى غير العرب الخراسانيين والأتراك فى العصر العباسى. فكانت القبائل العربية تفد باستمرار إلى مصر إما مع الولاة، أو يبعث بهم الخلفاء لتعزيز الجند واستيطان البلاد. ونلاحظ أن الخلافة فى عهد هشام بن عبد الملك ١٠٥ - ١٢٥ هـ تخلت عن السياسة التى اتبعتها منذ الفتح العربى وهى سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالى وعن الاشتغال بالزراعة. وساعد وجود العرب فى القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالمصريين وكان لهذا الاختلاط أثره أيضا فى انتشار الإسلام بمصر نتيجة للزواج أو للموالاة بينهم وبين المصريين أما المقصود باختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق الولاء أو الموالاة فهو اختلاطهم عن طريق الجوار والمصاهرة والعتق - وأخذت القبائل العربية تفد إلى مصر وتستقر فى القرى وتصاهر أهل البلاد. وزاد نشاط القبائل العربية فى كل أرجاء مصر وحفلت الإسكندرية أيضا بكثير من حركات القبائل العربية فى فجر الإسلام والعروبة فى مصر. فحين اضطربت أمور الخلافة العباسية أثناء النزاع بين الخليفة الأمين العباسى وأخيه المأمون ظهر أثر ذلك النزاع فى مصر وأدرك المعاصرون من المصريين أن الذين ولوا مصر إذ ذاك كانوا خارجين على الخلافة. وقامت عدة ثورات ونذكر منها ثورة بنى مدلج فى الإسكندرية ضد والى الخليفة العباسى المأمون سنة ١٩٨هـ. وبنو مدلج هم بطن من كنانة من عرب الشمال - وقد تم اندماج العرب بالمصريين منذ خلافة المعتصم بالله العباسى فى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى. إذ كانت سياسة هذا الخليفة منذ كان وليا للعهد تنطوى على الاعتماد على الأتراك وعدم الثقة بالعرب أو الفرس. فلما بويع بالخلافة سنة ٢١٨ هـ /

٨٣٢م أرسل إلى والى مصر كيدر نصر بن عبد الله يأمره بإسقاط من فى الديوان من العرب وقطع أعطياتهم فتم ذلك. ويبدو أن الاختلاط فى ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب وبين المصريين بدليل أن قرار المعتصم بصرف العرب عن ديوان الجند لم يكن له رد فعل يذكر.

ونلاحظ أن العرب فى مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان، ففى معظم شواهد القبور التى كشفت فى مقابر أسوان والفسطاط نجد أن اسم المتوفى يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة، ولكن من خلال القرن الثالث الهجرى نجد أن اسم القبيلة قد حل محلها اسم البلد أو الوطن الذى ينتسب إليه المتوفى فيكتب مثلا فلان المصرى أو الكوفى أو الاسوانى أو الادفوى ... الخ. وعندما فقد العرب مركزهم انتشروا فى سائر قرى ومدن مصر، وتزوجوا من بناتهم، واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة وغير ذلك من الأعمال التى كانوا يترفعون من قبل عن الاشتغال بها. وهذا الاختلاط قوى عروبة مصر فتعرب المصريون وتمصر العرب، وأصبحت العربية لغة الإدارة ولغة الثقافة والعلم والادب والفن، ولغة التخاطب والتحدث وفى القرن الرابع الهجرى – العاشر الميلادى كان غالبية المصريين أصبحوا يجهلون اللغة القبطية التي كانت اللغة القومية للمصريين حتى فتح العرب أرض مصر، وكذلك اللغة اليونانية التى كانت اللغة الوسمية منذ عهد البطالمة والتى كتب بها الإنجيل الشهيد مارى مرقس الإنجيلى الحوارى أول بطرك للإسكندرية – ولا ريب فى أن تعريب مصر كلها شمالا وجنوبا خلال ثلاثة قرون ظاهرة تستحق إمعان النظر. ولا شك

فى أنها ميزة للعرب على غيرهم – ولم يقف الأمر عند انتشار الدين الإسلامى والتعريب بل إن مصر فى زمن مبكر أى فى عصر الولاة – الذى يمتد من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م – تشارك فى الحياة الأدبية العربية مشاركة تبدو واضحة منذ أواخر القرن الثانى الهجرى . ومع أن جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط كان قلب هذه الحركة النابض إلا أن الإسكندرية شاركت أيضا مشاركة واضحة فى العلوم الإسلامية وعلوم العربية. فكانت الإسكندرية منذ القرن الثانى الهجرى – الثامن الميلادى مركزا ثقافيا عربيا مشعا، وكانت ملتقى للفقهاء المالكية المصريين الذين نشروا مذهب مالك فى مصر – فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبى حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر. ولم يكن مذهب أبى حنيفة رحمه الله يعرف بمصر – وإمام فقهاء المالكة فى الإسكندرية – ولم يكن تفوق مجتمع الإسكندرية العلمى قاصرا على الفقه وعلوم العربية والإسلام، وإنما كانت الإسكندرية عند الفتح العربى أهم مركز فى الشرق للثقافة اليونانية الرومانية. ولم يقض الفتح العربى على الحياة العلمية فى الإسكندرية ولاسيما فى العلوم العقلية – ومن المؤكد المام علماء الاسكندرية فى زمن مبكر من القرن الأول الهجرى بالعربية وقدرتهم على الترجمة من اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية – وكان فى الإسكندرية زمن الفتح الإسلامى طبيب اسمه ابن ابجر وكان يدرس بها، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد عليه فى صناعة الطب حين كان أميرا وبعد أن صار خليفة كذلك أرسل الخليفة العباسى هارون الرشيد فى طلب بليطيان أحد علماء الإسكندرية المشهورين لتطبيب جارية له.

هذه هى دراسة موجزة تبين كيف انتقل مجتمع الإسكندرية من مجتمع يوناني مصرى إلى مجتمع إسلامى عربى وكيف ازدهر هذا المجتمع العربي بعد الفتح فى أقل من قرنين من الزمان - وإذا كان تعريب مجتمع الإسكندرية قد سار فى نفس الطريق الذى سار فيه تعريب مصر فلا يفوتنا أن نذكر أن مصر العربية الإسلامية أصبحت مركزا للخلافة الفاطمية التى نافست خلافة العباسيين حوالى قرنين من الزمان ٣٦٢ - ٥٦٧هـ/ ٧٢م-١١٧١م ثم أصبحت مصر مركزا للخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد على أيدى المغول فى سنة ٦٥٦هـ-١٢٥٨م - وانتقالها إلى مصر فى عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م تلك الخلافة التى ظلت قائمة بها إلى الفتح العثمانى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. وحسبنا دليلا على علو مركز مصر العربية فى العالم الإسلامى العربى منذ العصور الوسطى أن نذكر قول ابن خلدون فى القرن - الثامن الهجرى - الرابع عشر الميلادى (ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم الإسلامى وينبوع العلم والصنائع).